

تجليات الحكاية في شعر عمر بن أبي ربيعة

أ.د. عباس عبيد كزار

الجامعة العراقية / كلية الآداب

المخلص

يُعدُّ ابن أبي ربيعة في طليعة شعراء الغزل في العصر الأمويّ الذي أوقف شعره على التغزل بالمرأة وتقدم المحيطين به من أمثال الأحوص والعرجي ووضاح اليمن وغيرهم، لعلّ لطبيعة البيئة التي نشأ فيها والترف الذي أحاق به وكثرة المال أدى به لعدم الالتفات إلى ما خاض فيه مجا يلون له من تزلف وتملق للخلفاء والولاة ووجهاء العصر بُغية الحصول على المال.

سبر أغوار المرأة ورسم صورته من خلال هذه الرؤية، فبنى حكاياته، ونقصد بها هنا حكايات النساء المسكوت عنها، ففضح تفكير المرأة الحجازية وما تضرر وبما تحلم، وتلك جرأة تسجل للشاعر، ففضح أحاديثهن بما يخفين فيها من فرح وحزن، ولاشك في أنّه شاعر خاض غمار التقاطع مع ما هو سائد من رؤية تقليدية ألفتها الأذن العربيّة في بناء النص، فالقديم لا يتقبل الوليد الجديد المندفع برؤيته بعد مخاض عسير، لا يريد أن يؤمن بذلك، فبدأ الصراع، ويعتمد البقاء على قوة الوليد الجديد، لقد استطاع الشاعر أن يرسم ملامح تجربته مما دفع بشاعر كبير مثل جرير ليقول: "ما زال يهذي حتى قال الشعر"

Abstract

Ibn Rabeaa is defined as the top love poet in Umayyad era. He stopped writing love poetry with reference to woman and his surrounding peers like AL-Ahwas, AL-Arji and Wadhah AL-Yemen surpassed him. So, this might be attributed to the environment where was brought up, luxury and richness led him not to take into account what others came across because some poets flattered rulers, leaders and pioneers of the era to get money.

Moreover, he gave an in-depth insight into women through this vision, he wrote his stories, it means that he unveiled women untold stories. So, he exposed Hijazi woman thought, her hidden secrets and her dreams. This boldness is attributed to the poet whose name is mentioned above; he disclosed what they hide in their conversations such as their happiness and sadness. Undoubtedly, he came across huge difficulties because his works were against mainstream approach which is based on traditional style in drafting the text. The old-fashioned does not accept the newly born motivated one following tough ordeal. It does not want to believe in it. Therefore, the struggle will be started.

Furthermore, the survival depends on the strength of the new-born. Finally, the poet managed to draw the glances of his own experiences which motivated great poet like Jareer to say "He is still narrating verses even in hallucination"

مُقَدِّمَةٌ

لا شك في أن الموضوع سينصب على دراسة السياق النصي في شعر عمر بن أبي ربيعة^(١)، لنقف على الجوانب الفنيّة والجماليّة (الاستيطيقية) التي انصب عليها شعره وانماز من غيره من شعراء الغزل، وكيف استثمر الحكاية في بناء النص، ندرك جيداً أهمية العنوان في النظرة الأولى للمتلقى وما يترك ذلك من أثر نفسي عليه بل قد يذهب بعيداً في تأمله في البحث عن مغزى العنوان . يُعدُّ ابن أبي ربيعة في طليعة شعراء الغزل في العصر الأمويّ الذي أوقف شعره على التغزل بالمرأة وتقدم المحيطين به من أمثال الأحوص والعرجي ووضاح اليمن وغيرهم، لعلّ لطبيعة البيئة التي نشأ فيها والترف الذي أحاق به وكثرة المال أدى به لعدم الالتفات إلى ما خاض فيه مجالون له من تزلف وتملق للخلفاء والولاة ووجهاء العصر بُغية الحصول على المال.

سبر أغوار المرأة ورسم صورته من خلال هذه الرؤية، فبنى حكاياته، ونقصد بها هنا حكايات النساء المسكوت عنها، ففضح تفكير المرأة الحجازية وما تضرر وبما تحلم، وتلك جرأة تسجل للشاعر، ففضح أحاديثهن بما يخفين فيها من فرح وحرز، ولاشك في أنه شاعر خاض غمار التقاطع مع ما هو سائد من رؤية تقليدية ألفتها الأذن العربيّة في بناء النص، فالقديم لا يتقبل الوليد الجديد المندفع برويته بعد مخاض عسير، لا يريد أن يؤمن بذلك، فيبدأ الصراع، ويعتمد البقاء على قوة الوليد الجديد، لقد استطاع الشاعر أن يرسم ملامح تجربته مما دفع بشاعر كبير مثل جرير ليقول: "ما زال يهذي حتى قال الشعر"^(٢)، وقف النقد القديم ومجالون له موقفاً من الشاعر أخذ مع تقدم الزمن وتقدم تجربته وقوة بنائه أن يحظى بمكانة مهمة في تاريخ الشعر العربيّ ولاسيما العصر الأموي منه ولعلّ السبب الكامن وراء ذلك أن الشاعر نهج نهجاً انماز به من كثير من الشعراء، يصف ذلك الحرمي ابن أبي العلاء، وهو من شيوخ أبي الفرج الأصفهاني حين يقابل بين لامية عمر ولامية جميل، إذ يقول: "لو أنّ جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لأرتج عليه وعثر كلامه به"^(٣)، إذ برزت فيه رؤيته الشخصيّة في بناء النص من هنا جاء أن يأخذ عمر مكانته بين شعراء العربيّة، على الرغم من اتكائه على ألفاظ سهلة في جلّ قصائده لكن النقاد وجدوا في شعره فصاحة تدل على مقدرة لغوية مستمدة من البيئة الحجازية، فضلاً عن اعتماده تراكيب فنية بلاغية كبيرة المغزى والمعنى، التفت الشاعر إلى أهمية المعنى في بناء النص لشد المتلقي لحكاياته، هذا الميل الواضح في اعتماد المعنى على حساب اللفظ ولاسيما في الحوارات التي دارت بين صويحاته التي نقلها في الوقت نفسه على علاتها، وآرانا لانفق مع ماذهب إليه الأستاذ جورج غريب في كتابه الموسوم "الغزل تأريخه وأعلامه" بأنّ الشاعر عمر بن أبي ربيعة لم يكن الحوار شأنه في بناء النص^(٤)، ممن

اشتغلوا في موضوعة الغزل، انصب هم الشاعر في بناء قصائده على حكايات انفراد بها وراح يرسمها بشكل لوحات جميلة يجسد فيها شوقه وولعه بمن يحب، وقد تقاطع مع الشاعر الجاهلي هنا ؛ لأنّ الشاعر الجاهلي كان ينظر لحكاياته الغزلية بوصفها جزءاً من منظومة بناء النص وتقليديته المعروفة، وسنقف أمام حكاياته لنرى كيف ركب الشاعر موجة بناء النص الحكائي بلغة سهلة تفرد بها عن سابقه ومجايليه، لعلّ لطبيعة الموضوعة التي يخوض فيها، كان يرسم بريشة فنان مقتدر، تبني رؤية أراد لها الخلود، فالديوان يعج بقصائده التي خرجت من تحت عباءة الحوار لتصل إلى ذهن المتلقي وتخترق شغاف قلبه .

وقفت كثيراً عند الدراسات التي دارت حول موضوعة ولع الشاعر بالمرأة وكيف رسم صورتها، نحن لا نهرب هنا من هذا الموقف بل سنقف لنتخذ منه مخرجاً للوصول إلى حيثيات تلك الحكاية التي رسمها ابن ربيعة بنفس المعشوق، ف" عمر أول من أختص بفن شعري واحد، وجعل الحوار والقصص من مقوماته في ذلك على أمير شعراء الجاهلية" (٥) .

سأخذ من المنهج التكاملي في هذه الدراسة طريقاً لاستبانة الجانب الفني في حكايات عمر بن أبي ربيعة وموقفه من المرأة ومدى تمكنه من وصول الصورة إلى المتلقي، لأننا لا نريد من بحثنا أن ينصب على علاقات الشاعر بالنساء بقدر ما نريد إيصال فكرة عن قوة إدارته لتلك الحوارات على وفق إطار فني، يحمل الإبداع والقدرة الفنية .

لعلّ ابن ربيعة تجاوز الشعراء بابتكاره نمطاً جديداً في تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة (٦)، وتجاوز شعراء الغزل في صورهم التي انساقت وراء الأعراف والتقاليد الموروثة في النظر إلى المرأة، وقد عبر الشاعر إلى فضاء مفتوح بعيداً عن المغاليق التي كبلت بها ذاكرة الشاعر العربي، لا نتفق مع الشاعر ابن أبي ربيعة في كونه قد خرق قانون العلاقة التي رُسمت بين الرجل والمرأة وبدا كأنه أكثر جرأة في رسم صورتها وهي قادمة لأداء مناسك الحج، فهتك بذلك سترها واسبأ لها ليجسد في تلك الحكايات فحولة رجل مرفه لا يعرف سوى اللهو ومغازلة النساء وقد اتخذ من ذلك مهنة، وعده النقاد رأس المدرسة الحسينية في الشعر العربي، " إنه أصدق مثال للعصر وللبيئة اللذين كان يعيش فيهما، وإنّ المؤرخ الذي يريد أن يدرس حياة الارستقراطية القرشية في الحجاز أثناء القرن الأول للهجرة يجب أن يلتمس هذه الحياة في شعر عمر بن أبي ربيعة قبل أن يلتمسها في أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة" (٧) .

مسرد الحكاية في شعره

انمازت القصيدة القصصية بصفاتها جنساً أدبياً له معايير التي ينتمي إليها، فضلاً عن اتكائه على البنى السردية لغرض شعري واضح المعالم، فكان ابن أبي ربيعة يمثل المثال الأرقى لهذا التصور، استثمر الشاعر في بناء قصائده التي افترط فيها بالحكاية والغنائية، التي أدهش المتلقي بها

وقفته من خلال حضورها البهي من اعتماده الحكاية مستثمراً قدرتها على امتلاك التشويق على وفق مشاهد حركيه وتداخل شخصياتها في مكان محدد ترسم فيه أحداثاً مهمة يصنعها الشاعر المبدع، يقول :

بِالْجَزَعِ بَيْنَ آذَانِ وَحَرَاءِ
نَزَهَ الْمَكَانِ وَغَيْبَةَ الْأَعْدَاءِ
مِثْنَاءَ رَابِيَةٍ بَعِيدِ سَمَاءِ
نَبَتَتْ بِأَبْطَحِ طَيْبِ الثَّرِيَاءِ
بَرَدَتْ عَلَى صَحْوِ بَعِيدِ ضَحَاءِ
دَارٌ بِهِ لَتَقَارُبِ الْأَهْوَاءِ
أَرْضٌ لَنَا بِلَذَاذِهِ وَخَلَاءِ
أَنْ لَا نُبَالِيهَا كَبِيرَ بَلَاءِ
رَفَعُوا ذَمِيلَ الْعَيْسِ بِالصَّحْرَاءِ
وَتَأْمَلِي مَنْ رَاكِبُ الْأَدْمَاءِ
وَرَكُوبَهُ لَا شَكَّ غَيْرَ مِرَاءِ
مِمَّنْ يُحِبُّ لِقَائِهِ بِلِقَاءِ
فِي غَيْرِ تَكْلِفَةٍ وَغَيْرِ عَنَاءِ
إِلَّا تَمَنَّتْهُ كَبِيرَ رَجَاءِ
وَأَجَابَ فِي سِرِّ لَنَا وَخَلَاءِ
رَدَتْ تَحِيَّتِنَا عَلَى اسْتِحْيَاءِ
غَيْبًا تُغَيِّبُهُ إِلَى الْإِمْسَاءِ
فَقَدَّ لَكُمْ رَهْنٌ بِحُسْنِ ثَوَاءِ
أَلَا يَرْمُنْ تَرَعْمًا بِرُغَاءِ
عَنَا عُيُونُ سَوَاهِرِ الْأَعْدَاءِ
تَمْشِي كَمْشِي الظَّبْيَةِ الْأَدْمَاءِ
رِيحٌ لَهَا أَرْجٌ بِكُلِّ فُضَاءِ
نَذَرْنَا أَدْيِيَهُ لَهْ بِوَفَاءِ^(٨)

حَدَّثَ حَدِيثَ فِتَاةٍ حَيٍّ مَرَّةً
قَالَتْ لِجَارَتِهَا (عِشَاءً) إِذْ رَأَتْ
فِي رَوْضَةٍ يَمْمَنُهَا مَوْلِيَّةً
فِي ظِلِّ دَانِيَةِ الْغُصُونِ وَرَبِيقَةٍ
وَكأنْ رِيقَتَهَا صَيِيرُ غَمَامَةٍ
لَيْتَ الْمُغِيرِيَّ الْعَشِيَّةَ أَسْعَفَتْ
إِذْ غَابَ عَنَّا مَنْ نَخَافُ وَطَاوَعَتْ
قُلْتُ ارْكَبُوا نَزْرَ النِّتِي زَعَمَتْ لَنَا
بَيْنَا نَسِيرُ رَأَتْ سَمَامَةً مُوَكَّبِ
قَالَتْ لِجَارَتِهَا انظري ها من أولى
قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ أَعْرِفُ زِيَّهَ
قَالَتْ وَهَلْ؟ قَالَتْ نَعَمْ فَاسْتَبْشِرِي
قَالَتْ لَقَدْ جَاءَتْ إِذَا أَمْنِيَّتِي
مَا كُنْتُ أُرْ جُو أَنْ يَلِمَّ بِأَرْضِنَا
فَإِذَا الْمُنَى قَدْ قَرَّبَتْ بِلِقَائِهِ
لَمَّا تَوَاقَفْنَا وَحَيَيْنَاهُمَا
قُلْنَ أَنْزِلُوا فَتَيَمَّمُوا لِمَطْيَكُمُ
إِنْ تَنْظُرُوا الْيَوْمَ الثَّوَاءَ بِأَرْضِنَا
عُجْنَا مَطَايَا قَدْ عَيِينِ وَعَوَدَتْ
حَتَّى إِذَا أَمِنَ الرَّقِيبُ وَنُومَتْ
خَرَجَتْ تَأَطَّرُ فِي ثَلَاثِ كَالدُّمِيِّ
جَاءَ الْبَشِيرُ بِأَنَّهَا قَدْ أَقْبَلَتْ
قَالَتْ لِرَبِّي الشُّكْرُ هَذَا لَيْلَةٌ

الذي يعني البحث هنا مدى حضور الحكاية وتقنياتها ورسائلها التعبيرية، ومدى مقدرة الشاعر على استعمالها، إذ اتخذت مظهراً سردياً انصهر في بنية النص، ولا بد لنا هنا أن نقف عند رؤية مهمة في النص الذي اجترحه ابن أبي ربيعة وبناه بشكل فني جميل معتمداً الحكاية وسيلة للوصول إلى المتلقي، فقد سما الشاعر بقصائده التي انكأت على الحكاية إلى غاية شعريّة لا تخرج عن سياق البناء الفني للقصيدة العربيّة التي ألفتها الأذن العربيّة وعشقته، واستعمل شيئاً من معطيات السرد فاتكأ على الحكاية بوصفها تمثل حدثاً من خلال تطوره الزمني وعلاقاته السببيّة، فكانت قصائده مبهرة، يقول :

قَالَتْ لِأَتْرَابِ نَوَاعِمِ حَوْلِهَا	بِيضِ الْوُجُوهِ خَرَائِدٍ مِثْلِ الدَّمِيِّ
بِاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنِي	حَقًّا أَمَا تَعْجَبِينَ مِنْ هَذَا الْفَتَى
الْأَدَاخِلِ الْبَيْتِ الشَّدِيدِ حِجَابُهُ	فِي غَيْرِ مِيعَادٍ أَمَا يَخْشَى الرَّدَى
فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمَحِبَّ مَعْوَدٌ	بِلِقَاءِ مَنْ يَهْوَى وَإِنْ خَافَ الْعَدَى
فَنَعِمْتُ بِالْأَلَا إِذْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ	وَسَقَطْتُ مِنْهَا حَيْثُ جُنْتُ عَلَى هَوَى
بِيضَاءٍ مِثْلُ الشَّمْسِ حِينَ طُلُوعِهَا	مَوْسُومَةً بِالْحُسْنِ تُعْجِبُ مَنْ رَأَى (٩)

كان استلهام الشاعر للحكاية مع محبوبته التي نظمها شعراً، قامت على الحوار والسرد، وقد ابداع الشاعر ايما ابداع في إدارة هذا الحوار، وجدناه قد افاد من الحكاية ويمكن عدّ هذه الحكاية قصة قصيرة، إذ ينجلي البناء القصصي من خلال رسم شخصياتها وحواراتها .
إن طرائق صوغه السردي لكثير من حكاياته على الرغم من تداخلها النصي في بنية الشعر وذوبانها فيه، ظلت أسيرة البساطة، لاسيما فيما يتعلق بالبناء الزمني وشخصيات الشاعر وإنماط السرد ومظاهره .يقول:

بَرَّرْتُ بَيْنَ ثَلَاثٍ	كَأَمَّهَا تَقَرُّو الصَّرِيمَا
قَمَرٌ، بَدْرٌ، تَبَدَّى	بَاهِرًا يُعْشَى النُّجُومَا
قُلْتُ: أَهْلًا بِكُمْ، مِنْ	زُورٍ زُرْنَ كَرِيمَا
فَأَدَأَفْتَنِي لَدِيدًا	خَلَّتْهُ رَاحًا خَتِيمَا
شَابَهُ شَهْدٌ وَثَلَجٌ	نَقَعًا قَلْبًا كَلِيمَا
ثُمَّ أَبَدْتُ، إِذْ سَلَبْتُ أَل	مِرْطًا، مُبِيضًا هَضِيمَا
فَلَهَوْنَا اللَّيْلَ حَتَّى	هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومَا
فَمَنْ يُزَجِّينَ غَزَالًا	فَتَرَ الطَّرْفَ، رَخِيمَا
وَلَقَدْ قَصَّيْتُ حَا جَا	تِي، وَلَاقَيْتُ النَّعِيمَا (١٠)

استمدت القصيدة مداها و ألقها الفني والجمالي من ترابط أمور عديدة، فقد انماز الشاعر بعاطفة جياشة تتضح في بنائه الفني من خلال صورته التي رسم ملامح شخصها بإحساس رسام مرهف الحس، فضلاً عن امتلاك الشاعر لأدواته لا سيما اللغة منها والتي انمازت بالثراء، فضلاً عن انزياحاتها ومجازاتها التي اتخذت من تقنيات السرد معبراً للوصول للمتلقي.

نلاحظ على قصائد الشاعر ميلاً واضحاً إلى المحافظة على سياق يعتمده في لغة الخطاب السردية، إذا يعتمد منهج الراوي المتماهي بمرويه، فاتكأ الشاعر على ضمير المتكلم واتخاذ وضعيه الراوي؛ لأنه يدرك جيداً بأنه عن طريق هذا الاستدلال سيصل إلى مبتغاه، يتمثل بقوة إقناع المتلقي لذلك وجدناه يبتعد كثيراً في بناء نصه عن طريق تنوع الضمائر في خطابه السردية واتكائه على ضمير المتكلم، وعند مفاتشتنا للنص، نكتشف أن الشاعر حينما لجأ إلى هذا الضمير وأقصد به ضمير المتكلم، إنما جاء ليعبر عن إحساسه الداخلي ومقدار وجعه وعشقه وألمه في تصوير ذات مولعة بالعشق والنساء، يقدم صورة أكثر من مقنعة للمتلقي بمدى ما يؤمن به، ونحن حين نتبع الإيقاع السردية للنص نجد إيقاعاً يتوافق مع الرؤية الثقافية للدارسين، إذ اعتمد الحوار الهادي، يقول:

قفي فانظري أسماء هل تعرفينه
أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن
فقلت: نعم لا شك غير لونه
لئن كان إياه لقد حال بعدنا
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
أخا سفر جواب أرض تقاذفت
قليل على ظهر المطية ظلّه
وأعجبها من عيشها ظل غرقه
ووال كفاها كل شيء يهّمها
وليلة ذي دوران جشمتي السرى
فبت رقيباً للرفاق على شفا
إليهم متى يستمكن النوم منهم
وباتت قلوبى بالعراء ورحلها
وبت أناجي النفس أين خباؤها
فدل عليها القلب ريباً عرفتها
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت

أ هذا المغيري الذي كان يُذكر
وعيشك أنساه إلى يوم أُقبر
سرى الليل، يحيي نصّه، والتهجّر
عن العهد و الإنسان قد يتغير
فيضحى وأما بالعشي فيخصر
به فلوات فهو أشعث أغبر
سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وريبان ملتف الحدائق أخضر
فليست لشيء آخر الليل تسهر
وقد يجثم الهول المحب المغرر
أحاذر منهم من يطوف وأنظر
ولي مجلس لولا اللبانة أو عر
لطارق ليل أو لمن جاء مغور
وكيف لما أتى من الأمر مصدر
لها وهوى النفس الذي كاد يظهر
مصابيح شبت بالعشاء وأنور

وَعَابَ فَمِيرُ كُنْتُ أَهْوَى غُيُوبَهُ
وَحَفُضَ عَنِّي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مَشِيَةَ الِ
فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأَتْهَا فَتَوَلَّهَتْ
وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِالْبَيِّنَانِ فَضَحَّتَنِي
أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَتَعْجِيلُ حَاجَةَ
فَقُلْتُ لَهَا: بَلْ قَادِنِي الشُّوقُ وَالْهَوَى
فَقَالَتْ: وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَخَ رَوْعُهَا
فَأَنْتَ أَبَا الْخَطَّابِ غَيْرَ مُدَافِعٍ
فَبِتُّ قَرِيرَ الْعَيْنِ أُعْطِيتُ حَاجَتِي
فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طَوْلُهُ
وَيَا لَكَ مِنْ مَلْهَى هُنَاكَ وَمَجْلِسٍ
يَمُجُّ ذِكْيَ الْمِسْكِ مِنْهَا مُقْبِلُ
تَرَاهُ لَهُ إِذَا مَا افْتَرَّ عَنْهُ كَأَنَّهُ
وَتَرْتُو بَعِينَيْهَا إِلَيَّ كَمَا رَنَا
فَلَمْ تَقْضَى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
أَشَارَتْ بَأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمْ
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا مُنَادٍ تَرَحَّلُوا
فَلَمَّا رَأَتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمْ
فَقُلْتُ: أَبَايَهُمْ فَايَمَا أَفْوَتْهُمْ
فَقَالَتْ أَتَحْقِيقًا لِمَا قَالَ كَاشِحُ
فَإِنْ كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ
أَقْصُ عَلَى أُخْتِي بَدءَ حَدِيثِنَا
لَعَلَّهُمَا أَنْ تَطْلُبَا لَكَ مَخْرَجًا
فَقَامَتْ كَنِيبًا لَيْسَ فِي وَجْهِهَا دَمٌ
فَقَامَتْ إِلَيْهَا حَرْتَانِ عَلَيْهِمَا
فَقَالَتْ لِأُخْتَيْهَا: أَعَيْنَا عَلَى فَتَى

وَرَوْحَ رُعِيَانٍ وَنَوْمَ سُمَّرٍ
حُبَابٍ وَشَخْصِي خَشْيَةَ الْحَيِّ أَزُورُ
وَكَادَتْ بِمَخْفُوضِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسُورٌ أَمْرُكَ أَعْسَرُ
وُقِيْتَ وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضْرُ
سَرَّتْ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ
إِلَيْكَ وَمَا نَفْسٌ مِنَ النَّاسِ تَشْعُرُ
كَلاكَ بِحِفْظِ رَبِّكَ الْمُتَكَبِّرُ
عَلَيَّ أَمِيرٌ مَا مَمَكَنْتُ مُؤَمَّرُ
أَقْبَلُ فَاها فِي الْخَلَاءِ فَاكْثَرُ
وَمَا كَانَ لِيَلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْضُرُ
لَنَا لَمْ يُكْذِرْهُ عَلَيْنَا مُكْذِرُ
نَقِي الثَّنَايَا ذُو غُرُوبٍ مُؤَشِّرُ
حَصَى بَرْدٍ أَوْ أَفْحُونَ مُنُورُ
إِلَى ظَبْيَةٍ وَسَطِ الْخَمِيلَةِ جُودُرُ
وَكَادَتْ تَوَالِي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ
هُيُوبُ وَلَكِنْ مَوْعِدُ مِنْكَ عَزُورُ
وَقَدْ لَاحَ مَعْرُوفٌ مِنَ الصَّبْحِ أَشْفَرُ
وَأَيْقَاطُهُمْ، قَالَتْ: أَشْرُ كَيْفَ تَأْمُرُ
وَمَا يَنْالُ السَّيْفُ ثَارًا فَيَثَارُ
عَلَيْنَا وَتَصَدِيقًا لِمَا كَانَ يُؤْتَرُ
مِنَ الْأَمْرِ أَدْنَى لِلْخَفَاءِ وَأَسْتَرُ
وَمَا لِي مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ
وَأَنْ تَرَحُّبًا سَرَبًا بِمَا كُنْتَ أَحْضَرُ
مِنَ الْحُزْنِ تُذْرِي عِبْرَةَ تَتَحَدَّرُ
كِسَاانٍ مِنْ خَزٍّ دِمْقَسُ وَأَخْضَرُ
أَتَى زَائِرًا وَالْأَمْرُ لِلْأَمْرِ يُقْدَرُ

فَأَقْبَاتَا، فَارْتَاعَتَا، ثُمَّ قَالَتَا:
 فَقَالَتْ لَهَا الصُّغْرَى: سَاعِطِيهِ مِطْرَفِي
 يَقُومُ فَيَمْشِي بَيْنَنَا مُتَكَبِّراً
 فَكَانَ مِجَنِّي دُونَ كُنْتُ أَتَقِي
 فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ قُلْنَ لِي
 وَقُلْنَ أَمْذَا دَأْبُكَ الدَّهْرَ سَادِراً
 إِذَا جِئْتَ فَاْمْتَحِ طَرْفَ عَيْنَيْكَ غَيْرِنَا
 فَأَخْرُ عَهْدِي لِي بِهَا حِينَ أَعْرَضْتَ
 سِوَى أَنِّي قَدْ قُلْتُ، يَا نَعْمُ، قَوْلَهُ
 أَقْلِي عَلَيْكَ اللُّومَ فَالْحَطْبُ أَيْسَرُ
 وَدِرْعِي، وَهَذَا الْبُرْدُ إِنْ كَانَ يَحْذَرُ
 فَلَا سِرْنَا يَفْتُشُو وَكَأ هُوَ يَظْهَرُ
 ثَلَاثُ شُخُوصِ كَاعِبَانَ وَمُعْصِرُ
 أَلَمْ تَتَّقِ الْأَعْدَاءَ وَاللَّيْلُ مُقْمَرُ
 أَمَا تَسْتَحِي أَوْ تَرَعُوي أَوْ تَفَكَّرُ
 لِكِي يَحْسِبُونَ أَنَّ الْهُوَى حَيْثُ تَنْظُرُ
 وَكَأح لَهَا خَدُّ نَقِيٍّ وَمَحْجَرُ
 لَهَا وَالْعِتَاقُ الْأَرْحَابِيَّاتُ تُزَجَرُ^(١١)

لاشك في أن الشعر خلق فني^(١٢)، ينفذ الشاعر من خلاله إلى المتلقي ليعبر عما يدور في نفسه، والشعر وظيفة طبيعية وأن لازمه أعمال فكر وجهد، وفي ديوانه قصائد كثيرة تسرد حكايات جميلة رسمها الشاعر تصويراً لما مرَّ به في مُعترك حياته اللاهية، فالشعرُ إبداعٌ، نلحظ ذلك على تلك القصائد وهي محملة بحكايته، وقد انتخب ألفاظها وإيقاعاتها وموسيقاها، يركب صهوة حسان معتدِّ به لأن القصيدة كانت هي التي يركن إليها لتهدأ روحه بما تمنحه إياه؛ فالشاعر يخلق تجربته الشعورية من دون أن ينظر إلى نتائج هذه التجربة.

المكان والحكاية

ظلَّ الشاعرُ أسير الوصف والتشبيب في حوارهِ القصصي، تتنازع في داخله عفة وإباحية، وكان في كِلا الحالين يقع تحت طائلة النشأة، ولعلَّه قد استمد ذلك من الشاعر القديم الذي أوجد أرضية صلبة لبناء النص عنده، ألم نجد المنخل اليشكري^(١٣) في معلقته يوحى لنا بهذا الفهم الذي أدركناه عبر حوارهِ القصصي، إذ يقول:

ولقد دخلتُ على الفتا
 الكاعب الحسناء تر
 دفعتهُها، فتدافعتُ
 ولثمتُها، فتنفَّست
 ورنت وقالت: يامنَّح
 ما مسَّ جسمي غيرُ حُبِّ
 ةِ الخدرِ في اليومِ المطيرِ
 فُلُّ بالدمقس والحريـرِ
 مشي القطة إلى الغديرِ
 كتنفس الطيبي البهـرِ
 لُ هل بجسمك من فتورِ
 ك فاهدني عني وسيري^(١٤)

إن حكايات عمر بن أبي ربيعة إنما هي في كثير من الأحيان ظلٌ لتجربة نفسية عاناها بعيداً عن الصنعة التي ألفتها بعض قصائد العربية لا سيما في الطللية المعروفة في تراث العرب الثقافي " ولايبعد الشاعر امرؤ القيس كثيراً في معلقته عن هذه الرؤية " (١٥).

الابتعاد عن الطللية التمسك بالحكاية

مظاهر حكايات ابن ربيعة في قصائده الغزلية، تبعد في بنائها عن الطللية التي ألفتها قصائد الجاهليين من وقوف على الأطلال والبكاء واستبكاء رفيق الرحلة، وأن مرَّ عليها مرور العابرين بصفتها لازمة ألفتها الثقافة العربية في بناء النص (١٦)، إلا أن الرحيل شكلاً هماً للشاعر في جلِّ حكاياته، فمثل الوجد الذي لا ينتهي في تلك اللحظات التي يودع فيها الحبيبة الراحلة عنصراً أساسياً في بناء مستهل الحكاية التي يروم إيصالها للمتلقي، فعلى الرغم من إحساسه وشعوره بنرجسية عالية، ظل أسير بناء النص الجاهلي في هذا المظهر، ولكن الشاعر بين ملامح حكايته حينما يصل إلى وصف موقف الحبيبة الراحلة، يقول :

أرقتُ، وأبني همّي،	لنأي الدار من نعم
فأقصر عاذل عني،	ومل ممرضني سقمي
أموت لهجرها حزناً،	ويحلو عندها صرمي
فبئس ثواب ذات الودد	تجزيه، ابنة العم
ويوم الشرى قد هاجت	دموعاً وكف السجم
غداة جلت على عجل	شئتياً بارد الظلم
وقالت لفتاة، عن	دها، حوراء كالرئم
أهو، يا أخت بالله، ال	ذي لم يكن عن اسمي
ولم يجازنا بالودد،	أحقي بي، ولم يكم
فقلت رجع ما قالت:	نعم يخفيه عن علم
فجئت فقلت: صبّ ذل	من واش أخي إثم
وقد أدنبت ذنباً فاص	فحي، بالله، عن ظلمي
فقلت: لا، فقلت: فلم	أرقت دمي بلا جرم؟ (١٧)

ومهما اختلفت الأمثلة الحكائية التي طرحتها قصائده، فلاين ربيعة، في شعره، توقيت واضح، ترك الزمن أخدوده في خرائط تلك القصائد، كان موقفاً في بنائه القصصي والتنقل في حكايته مصوراً معاناته في تواصله مع تلك النسوة على اختلاف مشارب الحكاية وصدقها، فإذا تتبنا قصائده، في مراحل مختلفة مرت بها شاعريته وأدركنا بأن أحاسيسه ومشاعره لم تكن متشابهه دائماً

وأما هي متغيرة جراء عوامل عديدة، فضلاً عن أنّ مزاج الشاعر قد ينتقل من حال إلى حال، قلقاً، مضطرباً، على ضوء تلك الحكايات ومدى تحقق مداها، لكنه ظل دائماً ذلك الشاعر التواق إلى اللقاءات الليلية الحميمة التي تجود بها صوحيباته وتستجيب إلى عطش لواعجه .

يفر الشاعر في لجة الحكاية العاتي التي يريد من خلالها وفي أجواء معاناتها، قيادة الحكاية بتعادل متزن، ليصبح في ذلك اللقاء أكثر بهاءً وأقل حزنًا ليطرأ للمتلقى فرصة الشعور بانتمائه إلى هذا النمط من الشعر الذي جاء وليد بيئة تقاطعت مع موروث ثقافي جبلت عليه الثقافة العربية في بناء النص وقد تجاوز في ذلك معاصريه من الشعراء، لقد بين ابن رشيق: أن من الأدباء من يقول: الشعراء ثلاثة جاهلي وإسلامي وأموي ومولّد، ثم يقول: وهذا قول من يؤثر الأنفة وسهولة الكلام والقدرة على الصنعة والتجويد في فن واحد، أما الثلاثة الذي ذكرهم فهم المهلهل ابن ربيعة وعمر ابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف^(١٨) ورسم لنفسه حدوداً على الرغم مما يمر به أحياناً من يأس تتقاطع فيه الأوقات العصبية في الانتظار صراع عاشه الشاعر بين الوعد في اللقاء والآتي وما يحمل من طعم تلّهب له الروح، فكانت بداية الحكاية ومن هنا تبدأ مهمته في رسم ملامحها في إطار قصصي جميل، يدرك الشاعر أنّ صدى الحكاية أقوى من كلّ الأصوات، ترتسم عليه ملامح الخوف والقلق والشكّ وخيبة الأمل، حين يرى أنّ هذا اللقاء قاب قوسين أو أدنى .

الالتكاء على السرد

يمثل الشاعر في حكايته الشعرية التي تحمل لبوساً جديدة في الأدب العربي في الشعر الأموي موقفاً واضحاً في بناء النص، تفصح في الوقت نفسه عن روح درامية تنتسب بمحاور بناء الفن القصصي مع الآخر، وتضع اللبنة الأولى من الحكاية وبناء ملامحها في السرد الشعري العربي، ولعلّها تعدّ مثالاً أو صورة للمثال الذي استقاه ابن أبي ربيعة ونجح فيه إلى حد بعيد.

اعتمد الشاعر في رسم حكايته على ضمير المتكلم، كونه بطل الحكاية وقد روى لنا حكايته مع محبوبته معتمداً خيالاً واسعاً (ولا تقدم الأحداث إلا من زاوية نظر الراوي، فهو يخبر بها، ويعطيها تأويلاً معيناً يفرضه على القارئ، يدعو إلى الاعتقاد به)^(١٩)، تجلّت الحكاية في ضوء ذلك عند ابن أبي ربيعة كونه قد قدم مثلاً يرتبط بحميمية الصورة التي رسمها، من هنا كانت شخصية الشاعر هي بؤرة النص، وبغية أن نكون واقعيين في قراءتنا للنص إذ لا يمكن أن نعدّ رسم الحكاية برؤية ضمير المتكلم في غزله إذ لا بد أن تتلاقح مجموعة من الانماط السردية الأدبية الأخرى كي تصل إلى ما يسمو إليه الشاعر.

وصف في حكاياته قصصاً حدثت لعلّ الخيال كان مرجعية أكثرها، والرواية أيضاً على الرغم من أنه كان مقتدرًا في الإشارة إلى صوحيباته وأماكن الحدث ويمكن عدّه جزءاً من سيرته الذاتية، " هكذا نرى أن القصيدة / الحكاية تنقسم إلى قسمين كبيرين، يندرج كلٌّ منهما في برنامج سردي

مُختلف^(٢٠)، فيما تضمن من حكايات اعتمد فيها نمطاً أسلوبياً يتصف بالمباشرة، كان أغلب الحوار الذي أداره وتجلّى في حكاياته العديدة المختلفة الاتجاهات، أحدث سرداً يمكن أن نطلق عليه (مونولوجاً) أي حواراً داخلياً ليكشف للمتلقي خفايا تلك اللقاءات الحميمة بل اعتمد صورة المرأة العاشقة المولهة بحبه، اعتمد أسلوباً بعيداً عن المباشرة، فيتخذ وسيلة للتقرب للمتلقي حينما يدع المرأة تتحدث عن أسرارها ولكن بصوته هو، من هنا رسم علاقة بينه وبين قارئ النص.

نقل الشاعر حكاياته للمتلقي مباشرة، لأنها لم تحدث أمام عين المتلقي وإنما من خلال ذلك الحوار الذي دار بين شخص حكاياته من النسوة الحالمات باللقاء، لاشك في أنه كان يدرك أهمية الأثر الذي يحدثه في المتلقي من خلال رسم تلك الحكايات ومدى غموضها لأنه بالمقابل قد يكون للسلطان هنا هيبة متابعة من يخرج على الأعراف والتقاليد.

من هنا تجلّت الحكاية في قدرة الشاعر على إرسال رسائل للمتلقي أوضح فيها كثيراً من المسكوت عنه في العرف الاجتماعي، كان للحوار أثره الواضح وغلب على أكثر الحكايات في قصائده وقد اعتمد ضمير الغائب، من أمثلة ذلك قوله :

وَأخِرُ عَهْدِي بِالرَّبَّابِ مَقَالِهَا لَنَا، لَيْلَةَ الْبَطْحَاءِ، وَالِدَمْعُ يَسْجُمُ
طَرِبَتْ، وَطَاوَعَتِ الْوُشَاةَ، وَبَيَّئَتْ شَمَائِلُ مِنْ وَجْدٍ، فَفِيمَ التَّجْرُمُ
هَلُمَّ فَأَخْبِرْنِي بِذَنْبِي أَعْتَرَفُ بَعْتَبَاكَ، أَوْ أَعْرِفْ إِذَا كَيْفَ أَصْرَمُ^(٢١)

أخذت الشخصيات في حكايات ابن ربيعة تتجلّى معالمها من خلال قدرته على التوصيف، فكانت أصواتهن المهموسة ودعواتهن الوجلة له، وعلاقة تلك النسوة ببعضهن ببعض قد رسمت بريشة فنان بارع، لأنّ انكاء الشاعر على ذلك يمثل معالجة درامية؛ لأنّ تلك الشخصيات التي تحدث عنها كثيراً شكلاً صورةً طاغيةً على مشهد الحكاية من دون أن يشعر المتلقي بأنّ تلك الشخصيات قد اقحمت أحياناً إقاماً جلياً بغية إتمام المشهد، فرسم خوفهن، رغبتهن الجامحة، للوقوف على ذروة المشهد الأخير حينما يلتقي مع محبوبته التي بدورها تطلب من الأخريات أن يمنحها فرصة إشباع رغبتها من هذا اللقاء الحميم الذي جازفن من أجله وتحملن وواجهن قيوداً كانت شائعة في المجتمع وتعدّ جزءاً مهماً في ثقافة بنائه الاجتماعي، مثلما أشرنا إلى اهتمام الشاعر ببيان الأبعاد الخارجية لشخصه وقد تجلّت في أكثر من نص في ديوانه ولا نبالغ إذا قلنا إنّ ديوانه قد بُني في أغلبه على هذه الرؤية، فرد تلك الشخصيات بشكل جماعي يروي من خلال ذلك حكاية حبه وولعه المفعم بالمشاعر الفياضة، حكايات نسوة دافقة بالصور الأنثوية المعبرة، نجح الشاعر وذهب بعيداً بصفته راوياً عليمًا بالحكايات التي نسجها ورسم ملامح بنائها عندما قدم شخص حكاياته المتمثلة بالحبيبة العطشى للقاءه وصويحباتها اللاتي ينشدن الدهشة والمتعة من وراء هذه لقاءات .

أصرَّ الشاعر على أن يكون هو الشخصية الفاعلة في بناء نصه؛ فالشاعر يتحدث باسم بطلة الحكاية ويتطرق إلى معاناتها فيما يحيط بها من عدو يلاحق أنفاسها ويحسب عليها خطواتها، فكان متداخلاً في العمل بشكل واضح؛ فارتبطت شخصيته بتلك الشخصيات المتمثلة بالمحبوبة وصوحيباتها فكانت العلاقة أحياناً قمة في الايجابية ونراها أحياناً متوترة حينما تختلط طبيعة العلاقة بين الحبِّ والكراهة ولكن في الأعم ساءت العلاقة الايجابية، لأنَّ الشاعراً بصفته المرسل لتلك الحكايات، كان يدرك جيداً أهمية ذلك الحوار الذي قام به بين البطلة وصوحيباتها، ونجاحهن في اتمام الصفقة اللقاء ومجازفتن في حمايتها وحمايته في الوقت نفسه .

من هنا كانت قصائده موضوعة وصفية تحمل من التعقيد شيئاً كثيراً، ذلك في ضوء اعتمادها على تعدد الأصوات وفي الوقت نفسه استعمال الحكي فضلاً عن ايماءاته الرمزية العديدة، محور منجزه الشعريّ المرأة والقصيدة نمت ممثلة بيئة ارتبطت بالتحول في مفهومات بناء الدولة الإسلامية عند النشأة؛ شاعرنا غير معني بالأمر السياسي، غارق في الهم الذاتي، فطبيعة حياته فرضت هذا النمط الشعري من دون أن يفني ذلك له أنه خرج عن تقليدية الموروث الذي ألفته الذائقة العربية؛ فكانت قصائده تحمل في طياتها رومانسية اللفظة وبساطة اللغة، وبحث حميم عن المرأة في ظل توهم عاطفي .

استحوذت الحكاية على تلايب البناء الفني للقصيدة مما يقربه من الصورة المبتغاة حتى يتلاحم بها مكوناً منها صوراً مادتها البيئية الحجازية ومضمونها صدق المعاناة الوجدانية وانصهارها في بوتقة حكاياته مع من يُحب، فجاءت حكاياته أكثر تنامياً وتوافقاً مع تطوّر الشاعراً في بناء النص لاسيماً وقد اختط لنفسه طريقاً يخالف فيه كثيراً من مجاليه وهناك أكثر من دليل على ذلك، ظلت المرأة تمسك بخيط يمتد بشكل متواشج في كل حكاياته وعدّها موضوعاته الأثيرة معترفاً بذلك، فطابعه الحسي المقترن بتصوير هواجس تلك النسوة الغارقات في العشق وصورة اللهفة للقاءات الحميمة معتمداً حيثيات المكان لتأكيد العلاقة بينه وبينهن، ليقدم صورة أقرب للواقعية منها للخيال وقد يتدخل الخيال ليمنح في ضوئه الشيء المعنوي صورة حسية نذكرنا بمدى قلق الشاعراً في رسم مسار تلك الحكايات وبنائها.

عاش الشاعراً عاشقاً، وظل طيلة حياته يعبر عن عنوان حياته اللاهية ويحاول في الوقت نفسه أن يرسل للمتلقّي رسائل كي يدرك ويفهم بواعثه بغية تحقيق حلمه، تتجلى حكاياته عبر ذلك الصراع المتأزم بنفس عاطفي ورغبة في التملك، وقد انعكس ذلك في نصه المتماهي أحياناً مع صور العاشق الجاهلي في حوارته وغربته، كان الزّمن يمثل قطب تلك الرغبة الجامحة عند الشاعراً فتدور عند مخيلته خواطر يرسم في ضوئها ملامح تلك اللقاءات وما ينتظره، وقد الح الشاعراً على بيان أثر

الزمن وصروفه بتأمل السليم الذي يحلم بالشفاء، افصح عن تطلعاته وآماله في تلك اللقاءات، كان يصور لهفة الآخر ليقدم لنا قصائد تتجلى فيها الحكاية.

نلاحظ على الشاعر كثرة الأسئلة، وهي أسئلة العارف، يطلقها ليحبيب في الوقت نفسه، شاغلاً المتلقي المتلهف الملم بالصورة التي سيؤول فيها الحوار وإلى أي مدى، إن هذا الأداء البطيء في الإيقاع له ما يسوغه في بناء النص، لأنه لاشك في تصوير مشاعر الشاعر/ الراوي، وقد اتكأ على أفعال، وواضح لأي دارس أهمية ديناميكية الفعل الذي ينقطع مع سكوت الجملة الاسمية، كان وصفيًا في بنائه .

استعمل في كثير من قصائده لغة سردية تعتمد الحكاية لبناء مجازاته التي تُعدُّ الزاد الحقيقي لبنائه اللغوي الشعري، فلجأ في بناء قصائده معتمداً العناصر التي تشكل جوهر القصيدة الغزلية في العصر الأموي لاسيما الجانب الموسيقي وقد اتكأ على بحور انمازت بالبحور السهلة الغناء^(٢٢)، معتمداً في الوقت نفسه عناصر السرد، فضلاً عن اتكائه على رسم صور اتخذت من التفاصيل اليومية لمغامراته التي يدعيها منهجاً لها، " فالحكاية التفسيرية تلعب دوراً كبيراً في رسم الصورة"^(٢٣).

ولابد لنا هنا أن نتساءل ونحن ندرس شاعراً كبيراً مثل عمر بن أبي ربيعة عن مغزى لجوئه إلى اعتماد لغة السرد وسيلة للوصول إلى القارئ، ماذا أراد من ذلك، وما الذي دفعه إلى اعتماد هذا المنهج في بناء نصه، أسئلة كثيرة تدور في مخيلة الباحث وراء حقيقة النص الذي كتبه ابن أبي ربيعة، لاشك في أن ميله إلى استعمال السرد وتقنياته ربما يرتبط برغبته للتعبير عن أفكاره بطريقة السرد والحكي، وهذا المنهج لا يخطيء أي متابع لبناء القصيدة العربية أن أغلب الشعراء اعتمدوا هذا الأسلوب في بناء نصوصهم، ولا نغالي إذا قلنا هو طريق سلكه الشاعر رغبة منه بالتجديد والتجريب في آن واحد، وترك بصمة واضحة المعالم لرؤيته في بناء النص باعتماد الحكاية .

تستمد قصيدته معالم ألقها الفني والجمال من خلال عوامل عديدة تتمثل بلغة ثرية يمتاز الشاعر بها عن غيره من مجاليه والتي استثمر فيها قدرتها على الانزياح وببساطتها الممتعة في استعمال تقنيات السرد، فضلاً عن ما اتضح من امتلاكه لعاطفة جياشة تقف خلف كل صورة رسمها وقد تجلت بشكل واضح في السرد والحوار في نصه ولا جرم في ذلك في تصويره لعاطفة جياشة ملؤها الحب والحنين على الرغم من إدعائه أو تصنعه القدرة على أنه المطلوب عشقاً، وهناك من يذوب في أدبائه عشقاً، هكذا يحاول أن يوهم المتلقي، بصوره التي جسدها في ديوانه .

خضعت قصائد الشاعر لبناء معين ترك بصمة واضحة لمدى تماسك تلك القصائد، فقد خضع بناؤه الشعري لمستوى دلالي يمكن المتلقي من أن يدرك مدى تماسك قصائده بمضمون واحد وأن جاءت متألفة الإيقاع والوزن، وقد اتخذ الشاعر شكلاً واحداً في بناء قصائده وقد تقاطع هنا مع ما

عرف عن القصيدة في شعر ما قبل الإسلام من أنها كانت تنماز بالطول وتعدد الوحدات التي يتجسد من خلالها بناء النص، فكان نضه بسيطاً يتناول موضوعة واحدة يجسد من خلالها دفق أحاسيسه وقوة مشاعره، على الرغم من أن هذه البساطة لا تعني أن عمق القصيدة لم يكن يحمل هماً إنسانياً وجهداً فنياً واضحاً.

يدرك الباحث جيداً أن هنالك بوناً شاسعاً بين قوة المبنى للقصيدة في عصر ما قبل الإسلام وهذه الثيمة أشار لها النقاد العرب القدامى، وتوقفوا عندها طويلاً، قد تكون البساطة قد غلبت عليه أخذت مداها وشكلت تجلياً من تجليات حضوره، فرسم ملامح رؤيه فنيّة جديدة تعبر عن صدق الشّاعر في نضه، معبراً عن أفكاره وأحاسيسه ودفق عاطفته، بغية الوصول إلى ما يروم .

ما قام به ابن أبي ربيعة فارس الغزل العذريّ، وركوبه موجة بناء النصّ الشعريّ الذي، يتسلل إلى شغاف قلب المتلقي، ضمن المسار السردّي للنص، جزءاً مهماً وفاعلاً عندما يتفاعل مع ذلك الحوار الذي يشغل الشّاعر فيه متلقيه، وفي ذلك الغاء واضح لتلك العقبات الشكليّة التي يصنعها بعض الشّعراء حاجزاً يقف بينهم وبين مكاشفة المتلقي عن قوة الأفكار والعواطف التي تختلج في نفس الشّاعر، صورة واضحة المعالم عن مدى أرقه ووجوده.

من هنا اتخذ الشّاعر مساراً بسيطاً في بنائه الشعريّ لايمانه بأنه الطريقة المثلى لا يصل ما يؤمن به للمتلقي، وجدنا الشّاعر يبتعد كثيراً عن الطللية التي ألفتها ثقافة بناء القصيدة العربيّة، وتغنت بها، إيماناً منه بأنّ الوقوف عند الأطلال لا يتناسب مع ما يتحدث فيه، فالشّاعر يعيش لحظات العشق وانتظار اللقاء فليس في حاجة للوقوف على الأطلال وتذكر الراحلين، يدرك في الوقت نفسه أنه يحمل مضامين الوجد، الذي نقصد به، وجع الاغتراب في المكان، تحققت الشعريّة في بنائه من دون الرجوع إلى الموروث الثقافي للقصيدة العربيّة، وهذا يحسب له لا عليه، جاءت قصائده تسير على وفق رؤية واضحة الانسجام والاتساق والتماسك، فضلاً عن وحدة الموضوع التي لا زمت ابن أبي ربيعة في قصائده.

تجلت الحكاية على وفق رؤية عاطفيّة ؛ فالشّاعر يصور ولع تلك النسوة به، ونلاحظ أنها تعد موضوعه الأثير الذي يتردد في جميع قصائده، ذلك الودع النسوي بشخصه، تلك النرجسية العالية، والشغف بالمرأة، ومثلما أشرنا أنه يرسم ملامح شخصيات الحوار في النص، معبرة عن قوة اندفاعه النفسيّ وتصوير لميثولوجيا الواقع المعيش، فالشّاعر مدار البحث، بعيد كلّ البعد عن الصراع الدائر في زمنه وهموم الإنسان وجوعه والأمة واضطهاده من قبل الآخر، ابن أبي ربيعة ليس معنياً بذلك، ظل أسير لوحة الذات المتأرجحة بين اليأس في اللقاء والأمل الموعود، لذلك انصبّ جلّ هممه على الغزل بالمرأة، ولا هم له غيرها .

يمثل الشاعر عمر ابن أبي ربيعة نقلة نوعية في بناء النص الشعري العربي من حيث البناء الشعري، فلتجربته خصوصية انماز بها من غيره من مجاليه، وقد هيمن على بناء النص الشعري الحواري، فقد انتقل الشاعر بالقصيدة العربية من طليتها المعروفة إلى فضاء جديد ينماز بالوحدة الموضوعية وظل محافظاً على الغنائية التي ألفتها الأذن العربية، فضلاً عن ما انماز به من نفس سردي، تجلت فيه أساليب السرد ومكوناته بشكل واضح .

أضحت الرؤية السردية في شعره معياراً للتكوين البنائي للحكاية في الأدب العربي بصفتها جنساً أدبياً تلاقح مع أجناس أخرى مستثمراً عناصر السرد وتقنياته ليقدم للمتلقي منجزاً ثقافياً ليس فيه إخلال في بنية النص من الناحية الفنية " ولا عجب أن يحتوي الشعر على عنصر قصصي يتخذه الشاعر مجالاً لتجربته، وهو فيه أبعد ما يكون عن الخضوع لقواعد القصة في مفهومها الحديث"^(٢٤). شكلت الحكاية التي جاءت على وفق تقنيات السرد بأشكالها المتعددة محوراً أساسياً في بناء النص الشعري لابن أبي ربيعة ؛ لا يصال معاناته للمتلقي، إن اتكاه على الحكاية واستعمالها في بناء النص الشعري أفاد الشاعر إفادة كبيرة في الوصول إلى المتلقي، فضلاً عن ما تركت من أثر واضح في تقوية بناء القصيدة وعززت من مستوى بنائها في الجوانب الفنية دلالة وتركيباً وإيقاعاً.

ثمار البحث

استحوذت الحكاية على تلايب البناء الفني للقصيدة مما يقربه من الصورة المبتغاة حتى يتلاحم بها مكوناً منها صوراً مادتها البيئية الحجازية ومضمونها صدق المعاناة الوجدانية وانصهارها في بوتقة حكاياته مع من يُحب، فجاءت حكاياته أكثر تنامياً وتوافقاً مع تطوّر الشّاعر في بناء النص لاسيّما وقد اختط لنفسه طريقاً يخالف فيه كثيراً من مجاليه وهناك أكثر من دليل على ذلك اتخذ الشّاعر مساراً بسيطاً في بنائه الشّعريّ لإيمانه بأنّه الطريقة المثلى لإيصال ما يؤمن به للمتلقّي، وجدنا الشّاعر يبتعد كثيراً عن الطللية التي ألفتها ثقافة بناء القصيدة العربيّة، وتغنت بها، إيماناً منه بأنّ الوقوف عند الأطلال لا يتناسب مع ما يتحدث فيه، فالشّاعر يعيش لحظات العشق وانتظار اللقاء فليس في حاجة للوقوف على الأطلال وتذكر الراحلين، يدرك في الوقت نفسه أنّه يحمل مضامين الوجد، الذي نقصد به، وجع الاغتراب في المكان، تحققت الشّعريّة في بنائه من دون الرجوع إلى الموروث الثقافي للقصيدة العربيّة، وهذا يحسب له لا عليه، جاءت قصائده تسير على وفق رؤية واضحة الانسجام والاتساق والتماسك، فضلاً عن وحدة الموضوع التي لا زمت ابن أبي ربيعة في قصائده.

تجلت الحكاية على وفق رؤية عاطفيّة؛ فالشّاعر بصور ولع تلك النسوة به، ونلاحظ أنّها تعد موضوعه الأثير الذي يتردد في جميع قصائده، ذلك الوجد النسويّ بشخصه، تلك النرجسية العالية، والشغف بالمرأة، ومثلما أشرنا أنّه يرسم ملامح شخصيات الحوار في النص، معبرة عن قوة اندفاعه النفسيّ وتصوير لميثولوجيا الواقع المعيش، فالشّاعر مدار البحث، بعيد كلّ البعد عن الصراع الدائر في زمنه وهموم الإنسان وجوعه والأمة واضطهاده من قبل الآخر، ابن أبي ربيعة ليس معنياً بذلك، ظل أسير لوحة الذات المتأرجحة بين اليأس في اللقاء والأمل الموعود، لذلك انصبّ جلّ همّه على الغزل بالمرأة، ولا هم له غيرها .

عاش الشّاعر عاشقاً، وظل طيلة حياته يعبر عن عنوان حياته اللاهية ويحاول في الوقت نفسه أن يرسل للمتلقّي رسائل كي يدرك ويفهم بواعثه بغية تحقيق حلمه، تتجلى حكاياته عبر ذلك الصراع المتأزم بنفس عاطفي ورغبة في التملك، وقد انعكس ذلك في نصه المتماهي أحياناً مع صور العاشق الجاهلي في حوارته وغربته، كان الزمن يمثل قطب تلك الرغبة الجامحة عند الشّاعر فتدور عند مخيلته خواطر يرسم في ضوئها ملامح تلك اللقاءات وما ينتظره، وقد الح الشّاعر على بيان أثر الزمن وصروفه بتأمل السليم الذي يحلم بالشفاء، افصح عن تطلعاته وآماله في تلك اللقاءات، كان يصور لهفة الآخر ليقدم لنا قصائد تتجلى فيها الحكاية.

يمثل الشّاعر عمر ابن أبي ربيعة نقلة نوعية في بناء النص الشّعريّ العربيّ من حيث البناء الشّعريّ، فلتجربته خصوصية انماز بها من غيره من مجاليه، وقد هيمن على بناء النص الشّعريّ

الحواري، فقد انتقل الشّاعر بالقصيدة العربيّة من طليبتها المعروفة إلى فضاء جديد ينماز بالوحدة الموضوعية وظلّ محافظاً على الغنائية التي ألفتها الأذن العربيّة، فضلاً عن ما انماز به من نفس سردي، تجلّت فيه أساليب السرد ومكوناته بشكل واضح .

هوامش البحث ومصادره:

- (١) هو عمر بن أبي عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر مخزوم بن يقظة بن مرة القرشي، كان يكنى أبا الخطاب، ولد سنة: ٢٣هـ، وكان تاريخ ولادته السبب في تسميته عمر؛ إذ إنه ولد الليلة نفسها التي توفي الله بها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، أمير المؤمنين، وذلك ليلة الأربعاء لأربع بقيت من ذي الحجة. وكان الحسن البصري يقول فيها: أي حق رفع وأي باطل وضع؟ يعني مقتل عمر ووضع عمر. توفي سنة ٩٣هـ؛ في هذا التاريخ كان يغزو في البحر في مدينة دهلك فمات فيها أي في الغزو حرقاً أو غرقاً بعد حرق سفينته. ينظر ديوان عمر ابن أبي ربيعة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، د فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م، ومايليها والأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: "الأغاني"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ١/٦٢ ومايليها، و ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦٦م: ٢١٦ والبغدادي، عبد القادر بن عمر: "خزانة الأدب"، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٨٦م، ١/٢٤٠.
- (٢) المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤هـ): "الموشح"، تحقيق على محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د:نط)، (د:ت): ٢٦٠، الأغاني، للأصفهاني: ١/٣٨
- (٣) الأغاني، للأصفهاني: ٢/١٣٤
- (٤) غريب، جورج: "الغزل تاريخه وأعلامه" دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د:نط)، (د:ت): ١٣٠٠.
- (٥) ينظر غريب، جورج: الغزل تاريخه وأعلامه، ١٧٣.
- (٦) ينظر خاطوم، عفيف نايف: "الغزل في العصر الأموي"، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م، ٩١ ومايليها.
- (٧) ديوان عمر ابن أبي ربيعة: ١٣. مقال للدكتور طه حسين نشر في جريدة السياسة في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤م.
- (٨) المصدر نفسه: ٣٣، ٣٤
- (٩) المصدر نفسه: ٣٧، ٣٨
- (١٠) المصدر نفسه: ٣٤٢، ٣٤٣
- (١١) المصدر نفسه: ١٢٢ ومايليها
- (١٢) ينظر المطليبي، عبد الجبار: "مواقف في الأدب والنقد"، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، ١٩٨٠م، ١٨١.
- (١٣) الشعر والشعراء، لابن قتيبة: ٤٠٥/١، والأغاني، للأصفهاني: ٦/٢١، والمرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ): "شرح ديوان الحماسة لأبي تمام"، علق عليه وكتب حواشيه، غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وينظر دواوين صغيرة/ ديوان الحارث بن حلزة، حققه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ١٩٦٩م، ١/٣٧١.
- (١٤) الشعر والشعراء، لابن قتيبة: ٤٠٥/١ وما يليها.
- (١٥) ينظر الغزل في العصر الأموي، عفيف نايف خاطوم، ١١٨.
- (١٦) ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها، وينظر جيور، جيراثيل: "عمر ابن أبي ربيعة"، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨١م، ٤٨٨ وما يليها.
- (١٧) ديوان الشاعر عمر ابن أبي ربيعة: ٣٤٤، ٣٤٥
- (١٨) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: "العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده"، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨١م، ١/٦٣

- (١٩) ينظر لفته، ضياء غني، وعواد كاظم: " سرديّة النص الأدبي" دار الحامد للنشر، بغداد، العراق، ٢٠١١م، ٦٤.
- (٢٠) صحراوي، إبراهيم: " السرد العربي القديم"، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة، الجزائر، ٢٠٠٨م، ١٨٨.
- (٢١) ديوان عمر ابن أبي ربيعة: ٣١٩.
- (٢٢) ينظر غريب، جورج: الغزل تاريخه وأعلامه، ١٢٩.
- (٢٣) إبراهيم، عبد الله: "موسوعة السرد العربي"، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، ٧٩.
- (٢٤) هلال، محمد: (دراسات ونماذج من مذاهب الشعر ونقده)، القاهرة، مصر، دار نهضة مصر، ١٩٦٠، ٥٩.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، عبد الله: "موسوعة السرد العربي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
٢. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: "الأغاني"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م.
٣. البغدادي، عبد القادر بن عمر: "خزانة الأدب"، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٨٦م.
٤. جبور، جبرائيل: "عمر ابن أبي ربيعة"، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨١م.
٥. حاطوم، عفيف نايف: "الغزل في العصر الأموي"، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م.
٦. دواوين صغيرة/ ديوان الحارث بن حلزة، حققه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ١٩٦٩م.
٧. ديوان عمر ابن أبي ربيعة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، د فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
٨. صحراوي، إبراهيم: "السرد العربي القديم"، دار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة، الجزائر، ٢٠٠٨م.
٩. غريب، جورج: "الغزل تاريخه وأعلامه" دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د:ط) (د:ت).
١٠. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦٦م.
١١. القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: "العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده"، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٥.
١٢. لفته، ضياء غني، وعواد كاظم: "سردية النص الأدبي" دار الحامد للنشر، بغداد، العراق، ٢٠١١م.
١٣. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤هـ): "الموشح"، تحقيق على محمد الجاوي، نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د:ط) (د:ت).
١٤. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ): "شرح ديوان الحماسة لأبي تمام"، علق عليه وكتب حواشيه، غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٥. المطليبي، عبد الجبار: "مواقف في الأدب والنقد"، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، ١٩٨٠م.

تجليات الحكاية في شعر عمر بن أبي ربيعة

١٦. هلال، محمد: (دراسات ونماذج من مذاهب الشعر ونقده) ، القاهرة، مصر، دار نهضة مصر،

١٩٦٠م